

التفاعل بين اللغة والهوية

أ/ عبلة زلاقي.

جامعة مولود معمري تيزي - وزو / الجزائر

الاستلام: 2018/03/15 . القبول: 2018/05/3 . تاريخ النشر: 2018/10/01

ملخص:

مقدمة: إن اللغة إرث اجتماعي، فهي الأساس الذي يقوم عليه تخيل الأمة، فهي من ولدت الهوية، التي تعتبر مسألة لغوية في جذورها حسب أندرسون. إذاً إن هناك تفاعلاً وثيقاً بين اللغة والهوية، إلى حد يصعب الفصل بينهما، فالهوية لا يكتمل مدلولها إلا في جوهر اللغة، وفي كيفية الوظيفة التي تؤديها هذه اللغة، وفي كيفية تعلمها واستخدامها. والمتعارف عليه أن اللغة العربية كانت عنوان الأمة وهويتها قبل الإسلام، أيام كانت أسواق العرب الأدبية تعقد دورياً، افتخاراً واعتزازاً بهذه اللغة الجميلة، التي يسبك منها أجمل الكلام، وأبدع النظم والقول شعراً ونثراً، وبعد الإسلام اكتسبت اللغة العربية شرف القداسة، فهي لغة القرآن الكريم مما زادها شرفاً وقداسة.

وصاحب اللغة يملك هوية عقلية وروحية، والتزامه بالتراث والتاريخ يحفظ هذه الأخيرة وإبداعاتها. وقد أدرك العرب المتمسكون بعروبتهم ولغتهم هذه الحقيقة، فالأمة التي تخسر لغتها تضيع هويتها وخصوصيتها، وتخسر ذاتها ومستقبلها، فكانت دعواتهم صريحة وصارمة للتمسك باللغة العربية، والدفاع عن تراثها الثقافي والعلمي، ذلك أن اللغة تصون وتحمي الهوية، وهي تنمو وتنتشر ويعلو شأنها ويزداد الاهتمام بها بنمو الهوية وثبات حضورها الوطني والإنساني.

إذن فاللغة هي عنوان الوجود والهوية، باعتبارها المستودع الأمين الذي تختزن به مقومات الانتفاء، وذاكرة المستقبل، فهي الوعاء الحاضن لمنجزات الحضارة، والشاهد الموثوق على تاريخ الأمة ومسار تطورها وعنوان وحدتها ورمز هويتها. ولا تكتمل الهوية الثقافية

* المؤلف المرسل: عبلة زلاقي: ablazelagui@yahoo.fr

ولا تبرز خصوصيتها الحضارية إلا إذا تجسّدت مرجعيتها في كيان شخص تتطابق فيه ثلاثة عناصر: الوطن، والأمة، والدولة. فأى مس بهؤلاء هو مس بالهوية الثقافية والعكس صحيح كما يقول الجابري.¹

ومما هو متعارف عليه أنّ اللغة منذ القدم هي المركز الوجودي الذي تقام عليه فكرة الأمة، وبالمقابل هي الثغرة التي يمكن أن يصاب من خلالها جسد الأمة بسهام المتربّصين بها، لذا فقد كان المستعمر يستخدم لغته لطمس هوية المستعمرين وإذابة لغتهم وشخصيتهم، وأدرك أيّما إدراك أنّه للتوسع أوساط المجتمع والبلاد لا بدّ من السيطرة على اللغة، من خلال إدخال لغة أخرى وتلقينها بالقوة للشعب وكان له ذلك، فرغم الاستقلال بقيت البلدان المستعمرة تابعة ثقافياً ولغوياً له.

وخير مثال نسوقه في حديثنا هذا، كيفية انقراض أمم بكاملها إبّان الاستعمار اللغوي كما حدث في استراليا ونيوزلندا ومثلما انقرضت لغات الهنود الحمر، وكيف كافح أبناء إقليم كوبيك في كندا من أجل الحفاظ على لغتهم الفرنسية بغية الحفاظ على هويتهم.

واللغة لا تزول إلا بزوال الأمة، فهي مكنونها ومصدر تحديد الملامح الأساسية المعبرة عن طبيعتها، ومرتبطة بالتراث والماضي والحاضر، وهي تحدد ملامح المستقبل بتطورها مع تطور العلاقات الإنسانية والتقنية.

وهذا البحث يهدف إلى الإجابة عن تساؤل هام: ماهي اللغة؟ وماهي الهوية؟ وما حدود العلاقة بين اللغة والهوية؟ وهو سؤال يقرّ بداخله أنّ ثمة علاقة تربطهما، وعلى الرغم من أنّ البحث فحواه قضية اللغة والهوية عموماً، إلا أنّ غايته هي اللغة العربية التي تمثّل هويتنا كعرب ومسلمين، إذن فثمة وقفة مع العربية بوصفها هوية.

وعليه نقول أنّ اللغة هوية، وليست "الهوية" لغة، بمعنى أنّ اللغة ليست المقوم الوحيد للهوية، وإن كانت من أهم هذه المقومات، وأشدّها خصباً وعمقاً وتركيباً. إنّ العلاقة بين اللغة والهوية هي علاقة الخاص بالعام، فالهوية أعمّ من اللغة؛ لأنّ الهوية لها تجليات عديدة غير "اللغة" إذ إنّها (الهوية) ببساطة متناهية ليست سوى تلك القواسم المشتركة أو القدر المتفق عليه بين مجموعة من النّاس، ذلك الذي يميّزهم ويوحّدهم، وليست اللغة وحدها التي تقوم بهذه المهمة، وهذا يعيدنا إلى المقومات الأخرى للهوية.²

مفاهيم ودلالات

ماهية اللغة: لغة: جاء في لسان العرب لابن منظور في تحديد الاشتقاق اللغوي لكلمة "اللغة" ما يلي:

"اللغة من لغا في القول يلغى وبعضهم يقول يلغو ولغي يلغى لغة ولغا يلغو لغوا: تكلم. وفي الحديث: من قال يوم الجمعة والإمام يخطب لصاحبه صه فقد لغا أي تكلم... واللغة: اللسن وحدّها أنّها أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم، وهي فُعلة من لغوت أي تكلمت أصلها لغوة والجمع لغات ولغون".³

لفظ اللغة يرادفه لفظ الحديث أو التحدث ويرادفه الكلام أو التكلم.

وهو جذر يدور حول معاني الرمي والطرح والإلقاء (اللفظ)، وهي معان ظلت مقترنة بهذا الجذر في تصاريف الهادّة، وحملت معاني الرمي وما يتصل بها ظلالا، فيها الزهد بالشّيء، وعدم أهميته، وكونه منبؤا، ذلك أنّ ما يرمى أو يلقي به يطرح يكون كذلك.⁴

ونوّه إلى أنّ العرب استعملوا كلمة "لغة"، وكلمة "لغات" للدلالة على اللهجات التي كانت منتشرة في الجزيرة العربيّة، وترتبط كلّ منها بقبيلة، أو مجموعة قبائل تعيش في حيز جغرافي (الحجاز، اليمن)، وقد تُنسب اللغة إلى القبيلة، لا إلى المكان (تميم)، فكانوا يقولون: لغة أهل الحجاز، ولغة أهل اليمن، أو لغة بني تميم، كما يقولون: لغة قرّيش، ولغة هذيل، وجاء اللغويون والذين عُنوا بجمع اللغة وتقعيدها، فاستخدموا "لغة" الاستخدام عينه، فإذا ما أرادوا التعبير عن اللغة، من حيث هي لغة القبائل العربيّة جميعاً، استخدموا أيضاً "لغة"، و"العربية".

اصطلاحاً: نجد لها تعريفات عدة ومتنوعة، فقد عرّفها ابن جني بأنّها "أصوات يُعبر بها كل قوم عن أغراضهم"⁵.

في هذا التعريف نلمس ذكرا لوظيفة اللغة التي هي التواصل وهذا ما نجده في اللسانيات مع المدرسة الوظيفيّة بزعامة كل من الفرنسي أندري مارتينييه والإنجليزي هاليداي، حيث رأوا بأن الوظيفة الأساسية للغة هي وظيفة التواصل بين البشر.

أمّا المدرسة التّوليدية مع الأمريكي نعوم شومسكي فقد ميّز اللغة بأنّها "أفضل مرآة للعقل البشري"⁶.

أمّا دوسوسير فاهتم باللغة كبنية وبوجهيها الفردي والاجتماعي وهذا ما يظهر في تعريفه للغة بأنّها "لها جانب فردي وجانب اجتماعي، ولا يمكن تصور أحد الوجهين دون الآخر"⁷.

فدوسوسير ومن معه من المدرسة النبوية اهتموا ببنية اللغة في ذاتها ولذاتها بغض النظر عن السياق والاستعمال.

عرّفها آخر: "وسيلة صوتية يستخدمها الإنسان للتعبير عما لديه من أحاسيس أو أفكار، وهذه الوسيلة تمكّنه من التفاهم مع الآخرين".⁸

- وتُعرّف اللغة عند علماء النفس اللغوي بأنها «مجموعة إشارات تصلح للتعبير عن حالات الشعور، أي عن حالات الإنسان الفكرية والعاطفية والإرادية».⁹

وعلى العموم تبقى اللغة هي ذلك الكيان الذي يحفظ لمتحدثيها وجودهم وهويتهم ويعطي ذلك التنوع الديني استنادا لقوله تعالى: «ومن آياته خلق السماوات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين» {الروم/22}

مفهوم الهوية: لا يمكننا الحديث عن اللغة دون ربطها بالهوية، بحكم وجود تفاعل بين المفهومين، وقد جعل المعجم الوسيط متصوراً مادياً هو: "بطاقة تثبت فيها اسم الشخص وجنسيته ومولده وعمله، وتسمى البطاقة الشخصية أيضاً".¹⁰ ويعرفها حسن حنفي بـ "التجربة الإنسانية المعيشة. فالإنسان هو الذي له هوية وليس الشيء الطبيعي".¹¹ وتبقى الهوية حسب عبد العليّ الودغيري "حملة علامات وخصائص من أجناس مختلفة، تستقلّ بها الذات عن الآخر، فبغيب هذه العلامات والخصائص تغيب الذات وتدوب في الآخر، وبحضورها تحضر"¹².

أما في اللغة الإنجليزية فتعني تماثل المقومات أو الصفات الأساسية في حالات مختلفة وظروف متباينة، وبذلك تشير إلى الشكل التجميعي أو الكل المركب لمجموعة من الصفات التي تكون الحقيقة الموضوعية لشيء ما، والتي بواسطتها يمكن معرفة هذا الشيء وغيره على وجه التحديد¹³

ويُعرّف "حسن حنفي" الهوية انطلاقاً من اللفظة واشتقاقها اللغوي وما يعادها في الحرف اللاتيني ويربطها بالأنا وبمعناها لدى الفلاسفة قائلًا:

"الهوية من الضمير "هو" يتحول إلى اسم. ومعناه أن يكون الشخص هو هو. هو اسم إشارة يحيل إلى الآخر، وليس إلى الأنا. وهو ما يعادل الحرف اللاتيني Id. ومنها اشتق أيضاً لفظ Identity. أما لفظ الأنبة فهو يعادل الحرف اللاتيني Ipse ومنها اشتق Ipseity. وبالتالي تمنع كل أنانية وخصوصية لأن الهوية تثبت الآخر قبل أن تثبت الأنا. لا تشتق الهوية من ضمير

المتكلم المفرد "الأنا" إلا بمعنى الأنانية في مقابل الغيرية. أما لفظ "الإنية" فإنه مشتق من "إن" حرف توكيد ونصب. ومعناه أن يتأكد وجود الشيء وماهيته من خلال التعريف.

وبماثل لفظ "الهوية" لفظ "الماهية" عند الفلاسفة أي جوهر الشيء وحقيقته. الهوية تماثل بين الأنا والهو في حين أن الماهية تماثل بين الشيء ونفسه. وهو أيضاً لفظ مشتق من أداة الاستفهام "ما"، وضمير الغائب المؤنث "هي". يستعمل في التعريف في حين أن لفظ "الهوية" يستعمل في الوجود. أما لفظ "جوهر" فهو صورة فنية من المعادن الثمينة ويعني اللب والحقيقة أغلى ما في الشيء.¹⁴

ولغة أهيية كبيرة في حفظ الهوية، فإذا فقد الشخص لغته فقد هويته، حتى أمكن القول إن اللغة هي الهوية.

أولاً: اللغة العربية وأهييتها:

نبذة عن اللغة العربية: اللغة العربية لغتنا الأم شأنها شأن أي لغة أم فاللغة الأم وعاء للفكر ومفتاح الابتكار وأداة الإبداع. ولعله مما حَمَل اللغة العربية دوراً إضافياً عن غيرها من اللغات الأم أنها الرباط الذي يربط أبناء الأمة العربية في قناة اتصال واحدة تمتد حتى تشمل الدول الإسلامية في بقاع شتى من العالم لأنها لغة الإسلام. بل إن نفوذها قديماً وحديثاً لم ينحصر في هذه الدول فقط بل امتد نفوذها من المحيط إلى الخليج حتى أصبحت إحدى اللغات العالمية. وقد استفادت أوروبا عبر التاريخ من المصطلحات العربية والعلمية في مجالات الفلسفة والهندسة والرياضيات والفلك والعلوم الطبيعية. كما تركت أثراً على اللغة الأسبانية والتركية، وكانت تدرس في الجامعات الأوروبية¹⁵. وهناك بحث عن تأثير اللغة العربية في غيرها من اللغات الحية الأخرى يوضح كيف غزت اللغة العربية أصقاعاً شتى من العالم ودخلت أمماً مختلفة وأثرت في لغاتها¹⁶. في حقيقة الأمر أن هناك بحوثاً شتى تعرضت لهذا الدور سواء بالتلخيص أو الإفاضة إلا أن اختيارنا قد وقع على هذا البحث بالذات كمثال فقط.

لقد استوعبت اللغة العربية القرآن واستوعب القرآن علومًا ومعارف تتضح كل يوم وحتى نهاية الخليقة فالقرآن الكريم فسر ومازال يفسر ظواهر علمية ظهرت بعده بمئات السنين مثل تفسير الخليقة الذي شرحه القرآن قبل العلم بحوالي خمسة عشر قرناً، ولسنا بصدد الدخول في تفاصيل هذا الأمر، فالأبحاث فيه متعددة وقد قطعت أشواطاً طويلة حتى من الأوروبيين أنفسهم بدليل دخول أكثر من عشرين ألف فرد أوروبي سنوياً في الإسلام.

يقول الجيوشي: وتتميز اللغة العربية عن غيرها من اللغات مثل اللغة الهندية والجرمانية بأنها لغة اشتقاق، ومع أنه توجد لغات اشتقاق في المجموعة الأوربية مثل الإنجليزية والفرنسية إلا أنه لو عرفنا أن عدد كلمات الفرنسية خمسة وعشرون ألف كلمة وكلمات الإنجليزية مائة ألف كلمة أما اللغة العربية فعدد موادها أربعمائة ألف مادة كل مادة تتفرع إلى اشتقاقات متعددة وذلك يضمن للعربية الوفاء بحاجات العلوم والمعارف المختلفة من أدب أو فنون أو غيرها. لو أخذنا لسان العرب مثلاً لوجدناه يحتوي على ثمانين ألف مادة ويؤدي تعريف وشرح نصف هذه المواد للحصول على نصف مليون كلمة مما يدل على أن العربية لغة غنية لا تنافسها أية لغة وقد قيل أن المستعمل من هذه المواد، ثمانين ألف، عشرة آلاف مادة فقط. هذا بالإضافة إلى أن هناك علاقة عضوية متناسقة بين كلمات المجال الدلالي الواحد بمعنى أن مادة الأخوة مثلاً في عائلتها: أخ وأخت وابن وأخت وذلك يجعل بين هذه الكلمات حروفاً أصلية مشتركة مما يسهل استيعابها ويفتح باباً من العلاقات المباشرة التي تساعدنا على التعبير عن أي علاقة داخل هذا الإطار "الأخوة". أما بالنسبة للإنجليزية مثلاً، وهي أكثر لغات العالم تداولاً، فلا يوجد مثل هذه القواعد مما يصعب استيعابها، أنظر مثلاً الأخ brother والأخت sister وابن الأخ cousin وابن الأخت niece وساق كاتب النص مثلاً آخر من مادة "كتب".¹⁷

أهمية اللغة العربية: ولغتنا العربية من الركائز الأساسية للوجود العربي، فالوحدة اللغوية والثقافية بين البلاد العربية لا تتم إلا بالمحافظة على اللغة العربية التي تؤدي إلى وحدة الشعور والفكر، كما كانت اللغة العربية هي الجسر الذي عبر عليه العرب والمسلمون جيلاً بعداً آخر لتحقيق التواصل، ولهذا كانت اللغة العربية وما زالت جوهر الهوية الثقافية، فهي لغة القرآن، كما أنها لغة ثرية في محتواها ومفرداتها، وقد حافظت اللغة العربية على استمرارية الأمة العربية.

ومن المؤكد أن إتقان اللغة العربية يساعد على الانسجام والتناغم بين أفراد المجتمع، بل والاعتزاز بهويتهم؛ لأن أبناء اللغة الواحدة يشكلون قوالب فكرية وثقافية مشتركة، لذا فاللغة والثقافة تسهم مساهمة فعالة في الحفاظ على الهوية الثقافية العربية والإسلامية.¹⁸

النهوض باللغة العربية:

اللغة العربية هي أبرز مظاهر الثقافة العربية، وأزمة اللغة المعاصرة هي أزمة الهوية الثقافية في الوقت ذاته، فاللغة هي أداة التعلم والتفكير، كما أنها تمثل ذاكرة الأمة، وهي أداة الاتصال الاجتماعي، ولهذا كله فاللغة العربية تعد من أكثر الميادين أهمية، ففيها الخصوصية القومية والوحدة الثقافية، والتراث والاستمرارية الثقافية، وحيوية الفكر العلمي

والإبداع الأدبي والمعتقد الديني، ولذلك فاللغة العربية هي الهوية بحق " فهي أداؤنا لكي نصنع المجتمع واقعا ، وثقافة كل أمة كامنة في لغتها ومعجمها ، واللغة العربية هي أكثر لغات العالم ارتباطا بالهوية ، وهي اللغة الوحيدة التي صمدت 17 قرنا سجلا أميناً لحضارة أمتنا في ازدهار، وشاهدا علي إبداع أبنائها "

لذلك لابد من الاهتمام باللغة العربية ، فالمسلمون الأوائل حققوا أعظم المآثر في القرون الوسطي ، وأضافوا كثيرا للعلم ، وكانت العربية هي لغة هذا العلم وتلك الحضارة " فلقد كتبت بها المؤلفات القيمة ، غزيرة المادة ، شديدة الأصالة ، وكان علي أي باحث يريد أن يلم بثقافة العصر أن يتعلم اللغة العربية ، وقد فعل ذلك كثيرون من غير العرب "

ومن متطلبات التّهّوض باللّغة العربية توجيه معلّمي اللّغة لأهمية الحديث والتّدرّيس باللّغة العربية الفصحى، وتعويد تلاميذهم على التّحدّث بها ، مع تبصيرهم بأخطائهم في أعمالهم التحريرية ومتابعة التّصويب لهم ، فالمعركة الحقيقية لا تكمن في مواجهة تعليم اللّغات الأجنبيّة ، بل ينبغي أن تكون تلك المعركة ضدّ العوامل التي تضعف من شأن اللّغة القوميّة ، وليس هذا معناه تجاهل اللّغات الأجنبيّة أو مقاومة تعليمها ، ولكن يكون تعلم الفرد للغة أجنبية بعد تمكنه من لغته القوميّة .

وقد أدركت دول العالم خطورة تسلل اللغات الأجنبية إلي ثقافتهم ، ولم يقتصر ذلك علي الدول النامية ، بل عبرت بعض الدول المتقدمة عن قلقها إزاء ذلك ، ففي فرنسا هناك إجماع علي اتخاذ كل الإجراءات الكفيلة بحماية اللغة والثقافة الفرنسيّتين من التأثير الأمريكي، ومنها إصدار قانون يلزم محطات البث التلفزيونية بآلا تزيد نسبة البرامج الأجنبيّة من إجمالي البث عن 30% ، وفي اتفاقية التبادل التجاري الحر بين أمريكا وكندا ، فرضت الحكومة الكندية علي الإدارة الأمريكية استثناء كل الصناعات الثقافيّة والإعلاميّة من الاتفاق المذكور .

وقد أدركت منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافة " اليونسكو " خطورة ذلك فأهابت بالدول الأعضاء وبالأمانة العامة التشجيع علي المحافظة علي جميع اللغات التي تستخدمها شعوب العالم وحمايتها، فأعلنت منظمة اليونسكو أن عام 2008م سنة دولية للغات، عملا بالقرار الذي اتخذته المؤتمر العام لمنظمة الأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافة في دورته الثالثة والثلاثين في 20 أكتوبر / تشرين الأول 2005م

وإذا كانت هذه الدول تعبر عن قلقها من غزو الإنجليزية بثقافتها لبلادهم ، فإن الأمر بالنسبة لنا يتطلب منا بذل مزيد من الجهد للحفاظ علي لغتنا العربية ضد الهجمة التي تتعرض لها سواء من الداخل أو الخارج ، وأن تتحول هذه الجهود إلي أفعال ، والتخلص من الأقوال ، بحيث تتحول هذه الجهود إلي طاقة عمل أوسع .¹⁹

ويمكن النهوض باللغة العربية من خلال مجموعة من الآليات والإجراءات والتي منها

:

- الاهتمام باللغة العربية والعمل علي تيسير تعليمها وتعلمها من خلال غرس حب اللغة العربية في نفوس الطلاب ، وابتكار صيغ جديدة لتعليمها وتعلمها.

- حدد "رشدي طعيمة" بعض المقترحات للنهوض باللغة العربية لتدعيم الهوية الثقافية ، ومنها :

* وضع أسس موضوعية لسياسة لغوية عربية موحدة ؛ بحيث يمكن لأجهزة الإعلام أن تحقق التقارب بين مستويات التعبير اللغوي.

* توفير البني الأساسية اللغوية التي تؤهل اللغة العربية للتفاعل مع لغات العالم الآخر ، سواء من حيث تنظيرها لا تعليمها ، أو إعداد معاجمها أو برامج استخدامها عبر وسائط التقنية الحديثة.

* البدء بتأسيس خطاب علمي بالعربية عبر مشروعات قومية في التعريب ، وفي تأسيس مجلات علمية باللغة العربية ، ودوريات متخصصة ، وتكثيف المؤتمرات والندوات العلمية ، ويتلو ذلك تعريب التعليم ؛ وخاصة التخصصات العلمية في التعليم الجامعي ، ومعالجة إشكالياته التي يطرحها معارضوه.

* تنمية اعتزاز الدارسين في مختلف المراحل التعليمية باللغة العربية ، ودعم ثقتهم في قدرتها علي استيعاب العلوم المختلفة.

* بناء أنظمة المعالجة الآلية وتحسينها وتقويمها من معطيات نصية ، ومعطيات معجمية ، ومعطيات مصطلحية ، ومعطيات ثقافية .

* تشجيع حركة الترجمة ، والارتفاع بمستوي تدريس اللغة الأجنبية في مختلف مراحل التعليم الجامعي .

- إنشاء شبكة عربية للتعليم عن بعد، يمتد نشاطها خارج الوطن العربي ، للعمل علي تعليم العربية للناطقين بغيرها ، وتعليم الجاليات العربية في المهجر ، لإبراز الوجه المشرق للثقافة العربية .

- إثبات الوجود والهوية الثقافية العربية علي الخريطة العالمية من خلال التواجد علي شبكة الانترنت، وتزويدها بقواعد بيانات ونظم معلومات باللغة العربية، وإنتاج برامج تمكن مستخدمي الإنترنت من البحث والتقصي باللغة العربية.

- لفت نظر معلمي اللغة العربية إلي الحديث والتدريس باللغة العربية الفصحى ، علي أن تكون هناك درجة ضمن بنود تقويم المعلم تخصص لإجادة اللغة العربية.

- تعويد المعلمين لطلابهم علي التحدث بالعربية الفصحى ، مع تبصيرهم بأخطائهم في أعمالهم التحريرية ، والاهتمام بموضوعات التعبير وخاصة الشفوي ، ورصد جوائز قيمة للطلاب جيدي الحديث والإلقاء والكتابة بالعربية الفصحى.

- العمل علي إنشاء مركز موحد للغة العربية علي مستوي الوطن العربي؛ تكون مهمته الأساسية الإصلاح اللغوي، بحيث يقوم برصد مفرداتها الجديدة ، أو ضبط استخدامها ، أو تنمية طرق تعليمها ، لأن ترك اللغة العربية دون مركز موحد لضبط مصطلحاتها ومتابعة تجديدها وتقليص الفوارق في اللهجات قد يؤدي إلي زيادة التخبط اللغوي.

اللغة والهوية:

أوجه الاتفاق والاختلاف: اللغة أقدم تجليات الهوية ، أو لنقل: هي التي صاغت أول هوية لجماعة في تاريخ الإنسان، إنَّ اللسان الواحد هو الذي جعل من كلِّ فئة من النَّاس "جماعة" واحدة، ذات هوية مستقلة، ويزداد الاهتمام باللغة والهوية معًا، ويشيع الحديث عنهما، في المنعطفات أو المفاصل التاريخية في حياة الجماعات، وهي منعطفات أو مفاصل ليست من نوع واحد، فقد يكون منعطفًا أو مفصلًا حضاريًا إيجابيًا تصاعد الجماعة، أو تثب فيه نحو الحضارة والتقدم، وقد يكون سلبياً تتعرَّض فيه للانكسار، وتغزوها رياح التشُّت والانطماس، وربما الغياب عن ساحة الفعل والتأثير، في كلا الحالتين تبرز قضية اللغة، وقضية الهوية، وفي الغالب يتمُّ الربط بينهما ويتماهيان إلى درجة أنَّهما يكادان يُصبحان شيئاً واحداً.

وفي هذا السياق نستحضر بواكير التحول العربي من ضيق القبلية والبداءة إلى سعة الحضارة والمدنيَّة، هذه النقلة التي أحدثها الإسلام، وكان أحد تجلياتها الواضحة الاتجاه الكبير

نحو التدوين اللغوي، ونشاط الدراسات اللغوية واللحوية، في إشارة واضحة وعميقة إلى التحول في حياة أولئك الأعراب، وشعورهم بأنهم أصحاب هوية.

الصورة المقابلة صورتنا - نحن العرب والمسلمين - بعد الحقبة العثمانية، وموت الرجل المريض، وفيها يبدو المسلمون عامة، والعرب منهم خاصة، في طريقهم إلى التشرذم والتفكك تحت تأثير الانقطاع الحضاري الطويل، والسُّبُت الذي امتد قرونًا، وأيضًا تحت تأثير العقل الاستعماري الذي يُريد أن ينهب ويهيمن ويستتبع، ويومها أيضًا برزت قضية اللغة، وإن كانت الظروف مختلفة، فقد قُدمت اللغة العربية على أنها بديل للفكر الذي غزاها (الإسلام)، وجعل العنصران (عنصرًا هوية الأمة)، على أنهما نقيضان، ولسنا في معرض العوامل التي كانت وراء ذلك.

وحتى لا نخرج من إطار الموضوع، فإننا سنركّز على اللغة والهوية، والعلاقة القائمة بينهما، وإذا كنّا قد نثرنا إشاراتٍ إلى عمق تلك العلاقة، فإننا سنضعها هنا تحت المجهر؛ لنرصد الدوائر التي يلتقيان فيها، والقواسم المشتركة التي تجمع بينهما.

إنّ كلا من اللغة والهوية خاصية إنسانية، فاللغة هي لغة الإنسان، لا يشاركه فيها كائن آخر، وكذا شأن الهوية، فما يجمع بين فصيل من الحيوانات أو سرب من الطيور أو نحو ذلك، ليس بالتأكيد هوية.

وإنّما كانتا (اللغة والهوية) خاصيتين إنسانيتين؛ لأنّ الإنسان وحده هو الذي يملك الوعي، والشعور بالذات، وبالأخر، وهذا ما يجعلنا نقول إنّ كلاً منهما مرتبط بالعقل، وهذه دائرة جديدة مرتبطة أشد الارتباط بسابقتها، هما إذاً خاصيتان عاقلتان.

وهما أيضاً أوليتان، بمعنى أنهما قديمتان وجدتا مع وجود الإنسان على هذه الأرض، إنّ الله - سبحانه وتعالى - ميّز آدم - عليه السلم - بـ "عِلْمَ الأسماء"، وما الأسماء في حقيقتها إلّا نوع من اللغة التي تجعله قادرًا على التفكير فيما يحيط به، والتعامل معه، ثم إنّ هذه العملية - عملية التعليم نفسه لآدم - حدّدت هويته وميّزته عن غيره من المخلوقات، فهو كائنٌ مختلف يعرف ما لا يعرفون، ولديه خصائص ليست فيهم.

وكلّ منهما كذلك كلّ مرّكب، بلغة الفلسفة والمنطق؛ أعني: أنّهما أشياء تدرج تحتها أجزاء، وهي أجزاء متداخلة لا يمكن فصل بعضها من بعض، اللغة تحتوي طرائق التفكير والتاريخ والمشاعر، وإرادة الناس وطموحاتهم وشكل علاقاتهم، والهوية أيضًا هي هذه العناصر في كليتها وتركيبتها.

وهما - إضافةً إلى ذلك - تاريخيتان، بمعنى أنَّهما محتاجتان إلى التاريخ أو الزمن حتى تتشكَّلا وتتعمَّقا، وتأخذًا الأبعاد اللازمة، ولا يتنافى هذا مع ما قلناه من أنَّهما أوليتان، فأوليتهما يُراد منها الإشارةُ إلى ملازمتها للإنسان، وتاريخيتهما تُشير إلى ما تحتاجان إليه حتى تنضجا. ثم إنَّهما جمعيتان، والمقصود من "الجمعية" أنَّهما لا تعيشان داخل الفرد منعزلًا، إلَّا في صورة ساذجة، لا تجعل منهما مستحقَّين لاسميهما.

اللُّغة والهويَّة هما إذًا وجهان لشيء واحد، بعبارة أخرى: إنَّ الإنسان في جوهره ليس سوى لغة وهويَّة، اللُّغة فكره ولسانه، وفي الوقت نفسه انتماءه، وهذه الأشياء هي وجهه وحقيقته وهويته، وشأن الجماعة، أو الأمَّة هو شأن الفرد، لا فرق بينهما، وفي ذلك الإنسان ومقوماته يقول الشاعر القديم ذلك البيت الذي نعرفه جميعًا:
لِسَانُ الْقَتْلِ نِصْفٌ وَنِصْفٌ فَوَادُهُ فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا صُورَةُ اللَّحْمِ وَالْدَّمُ²⁰
وعلى الرَّغم من دوائر الالتقاء بين اللُّغة والهويَّة فإن من المشروع أن نسأل: هل ثمة دوائر يفترقان فيها؟

والجواب: أنَّ ثمة مَنْ يضع حدودًا بينهما، أو لنقل: إنَّ بعضهم يرى الهويَّة أكثرَ في غير اللُّغة.²¹

إذن فاللُّغة: في اللغة تعني التحدث والتكلم والتلفظ والنطق أما في الاصطلاح فهي نسق ونظام من الرموز والإشارات تُستعمل للتواصل، ويقترن هذا النظام بالفكر والوجدان والاجتماع والحضارة في الإنسان. اللُّغة خاصية إنسانية.

- الهوية: في اللُّغة تعني حقيقة وماهية وجوهر الموضوع وفي الاصطلاح تعني الثَّابت والدَّائم في الموضوع من خصائص ومكوّنات وعناصر، والمميّز له عن غيره، الموجود به الموضوع والمنعدم من دونه.

العلاقة بين اللُّغة والهويَّة: وترتبط الهوية باللُّغة ارتباطًا وثيقًا، ارتباط العلة بالمعلول، وعلى سبيل التأثير والتشكيل والتمثيل، فالواحدة منهما تؤثر في الأخرى وتشكِّلها وتمثِّلها، فالهوية حالة في اللُّغة لأنَّ كلَّ لغة لها هويَّتها الخاصَّة بها، وتعبِّر اللُّغة عن الهوية كما تعبِّر الهوية عن اللُّغة، وقد تكون اللُّغة إحدى المقوِّمات أساسيَّة أو غير أساسيَّة في بناء الهوية، وتنتج اللُّغة الهوية وتحافظ عليها وتنقلها من جيل إلى آخر ومن وقت إلى آخر، وتقوم الهوية بتنشيط اللُّغة وتحريكها وتحافظ عليها وتؤمن وجودها من الاندثار، وتتأثَّر اللُّغة بالهوية إذ تقوى بقوَّتها وتضعف بضعفها وتنصرها بانصرها وتندثر باندثارها، وانطلاقًا من العلاقة الوثيقة

بين الظاهرتين الإنسانييتين الهوية واللغة يتحدّد مدلول الهوية اللغوية باعتبارها أحد المفاهيم الرئيسية في الفكر المعاصر. ويقول حسن حنفي محددا العلاقة بين الهوية واللغة في الوطن: "الهوية واللغة موضوعان مرتبطان يتفاعلان في السلوك الفردي والاجتماعي داخل الأوطان، يؤثر كل منهما على الآخر، قوة وضعفا، إذا قويت القوة قويت اللغة. وإذا ضعفت الهوية ضعفت اللغة. اللغة تعبير عن الهوية طبقا للقول المشهور (تحدث حتى أراك). وقد تحدث الله في الوحي حتى تُعرف ذاته العلية. وكلمة (لوعوس) في المسيحية كما هو الحال في إنجيل يوحنا تعني الكلمة والهوية والوجود في آن واحد"²²

وإذا كانت "اللغة" مطلقة هي الهوية كما سلف، فإنّ "العربية" تحديداً هوية لأصحابها (العرب)، ولغيرهم (من يتعبدون بها من المسلمين) إنها هوية من طراز خاص، تمتلك الكثير من العناصر التي تجعلها كذلك:

القداسة: وذلك لارتباطها بكلام الله عزّ وجلّ (القرآن الكريم) والذي ينصّ بنفسه على عروبته. وهذا المعنى إن دلّ على شيء فإنما يدلّ على المكانة العظمى التي تحظى بها هذه اللغة في نفوس العرب المسلمين.

الحفظ: فاللغة وعاء حفظها الله عزّ وجلّ عندما اختارها لتكون لغة أعظم وأقدس كتاب على وجه الأرض وخير دليل ما جاء في قوله تعالى: {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ} [الحجر: 9].

التاريخية: فاللغة وعاء لحفظ التاريخ، وكلّما كان هذا الأخير ممتداً وخصباً انعكس على اللغة قوةً وثراءً فهي التآكل الأمين لكلّ الأحداث، وتاريخ العربية يمتدّ قروناً طويلة، كانت هي خلاله لساناً واحداً ولا تزال، خلافاً لتواريخ كثيرة، وألسنة عديدة، انقطعت أو بُترت، فما عاد لها صلة بمراحل تاريخية سابقة، ولا لغات أمّهات وُلدت من رحمها.

الجغرافية: ممّا هو معروف أنّ العربية امتدّت على مساحات شاسعة من العالم، بفضل الإسلام، وفي كلّ مكان وصلت إليه كانت تتفاعل مع طبيعته، وسكانه، تأخذ منه ومنهم وتعطيهم،

توجد لغة من لغات العالم قد اتّسعت اتّساعها.

الحضارية: فهي التي سجّلت سبقاً تاريخياً فقد كانت لغة الفكر والعلم والتقدم قروناً عديدة.

الثراء:

فهي التي تتميز بجمال التراكيب والجرس الموسيقي والجزالة في التعبير وثراء في المفردات وغيرها.

خاتمة: اللغة مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بهوية الفرد، وحين تضعف لغة واحدة تزول معها ثقافتها، وكما جاء عن الفيلسوف الألماني هيدجر الذي قال إنَّ لغتي هي مسكني، هي موطني ومستقري، هي حدود عالمي الحميم ومعالمه وتضاريسه، ومن نوافذها ومن خلال عيونها أنظر إلى بقية أرجاء الكون الواسع، فاللغة التي تدلّ على هوية الفرد وتكشف عن ذاته ومن هو. واللغة هي أساس الأمة وهي التي تربط الحضارات بعضها ببعض، وهي التي تخلّد الأمم، فكأنّها مفتاح الغد الذي يختزل الماضي وإرثه، فوجب علينا الحفاظ عليها والاعتزاز بها لأن:

- اللغة تعبّر عن نفسها وعن الهوية.
- اللغة تنتج الهوية جزئياً أو كلياً.
- لا تقوم اللغة من غير هوية.
- لا تقوم الهوية من غير لغة.
- لذا وجب علينا المحافظة على الهوية العربية على كافة المستويات .

الهوامش:

¹ محمد عابد الجابري: العولمة والهوية الثقافية، ص 15-16

² ينظر فيصل الحفيان: اللغة والهوية، إشكاليات المفاهيم وجدلية العلاقات.

³ ابن منظور، أبو الفتوح محمد بن مكرم: لسان العرب، الجزء الخامس عشر، دار صادر، بيروت، لبنان، بدون طبعة، بدون سنة، ص 251 و 252

⁴ ابن سيده: "المحكم والمحيط الأعظم في اللغة"، تحقيق مجموعة من المحققين، القاهرة، معهد المخطوطات العربية، 2004 (ط. جديدة ومنقحة)، وينظر أيضاً: الزمخشري، "أساس البلاغة"، القاهرة، الهيئة العامة لقصور الثقافة، 2003 (لغو).

⁵ أبو الفتح عثمان بن جني، الخصائص، تحقيق: محمد علي النجار (القاهرة، دار الكتب المصرية، 2006): 33.

[1].

⁶ Chomsky N, Knowledge of Language (New York,1986),1

⁷ Saussure Ferdinand, cours de linguistique Générale (Paris, 1995), 24

⁸ سويد عبد الله ومصطفى عبد الله: اللغة العربية، دار الكتاب والتوزيع والإعلان والمطابع، طرابلس، ليبيا، الطبعة الثالثة، سنة 1982، ص 78.

⁹ أبوبكر العزاوي: اللغة والحجاج، دار إفريقيا الشرق، المملكة المغربية، الطبعة الأولى، ص 43.

- ¹⁰ المعجم الوسيط، القاهرة، المكتبة الإسلامية للطباعة والنشر والتوزيع، ط2، 998، مادة (الهو).
- ¹¹ حسن حنفي، الهوية والاعترا ب في الوعي العربي، مجلة تبين، 11: (2012).
- ¹² عبد العلي الودغيري، اللغة والدين والهوية، الدار البيضاء، مطبعة التّجّاح الجديدة، 68: (2000).
- ¹³ رشدي أحمد طعيمة: الثقافة العربية الإسلامية بين التأليف والتدريس، القاهرة: دار الفكر العربي، ص 35.
- * مفكر وفيلسوف مصري معاصر له مشروع فكري معروف "بالتراث والتجديد".
- ¹⁴ حسن حنفي: مقال عنوانه: الهوية واللغة في الوطن، رابطه في موقع التجديد العربي: <http://www.arabrenewal.info/2010-06-11>
- ¹⁵ نّجاة عبد العزيز المطوع، "آفاق الترجمة والتعريب" عالم الفكر، المجلد التاسع عشر، العدد الرابع، يناير-مارس، 1989، الكويت، ص. 5-14.
- ¹⁶ سامية أسعد، "ترجمة النص الأدبي"، عالم الفكر، المجلد التاسع عشر، العدد الرابع، يناير-مارس، 1989، الكويت، ص. 15-36.
- ¹⁷ محمد إبراهيم الجيوشي، "خصائص اللغة العربية"، الأخبار، 1998/8/24، ص. 4.
- ¹⁸ عبد الرحمن عمر الماحي: العولمة واستلاب الهوية الثقافية للمسلم، المؤتمر العام التاسع عشر للمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، في الفترة 27-30 مارس 2007، ص 655
- ¹⁹ هاني محمد يونس موسى، دور التربية في الحفاظ على الهوية الثقافية للمجتمع العربي، كلية التربية - جامعة بنها
- ²⁰ بيت للأعور الشني: (ت50هـ).
- ²¹ فيصل الحفيان، العلاقة بين اللغة والهوية، 2009/9/5، تمّ الاطلاع عليه بتاريخ 2017/7/25.
- http://www.alukah.net/literature_language
- ²² حسن حنفي: الهوية والثقافة في الوطن، <http://www.arabrenewal.info>